

البيت الحرام وتاريخه مع الأنبياء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد. فقد عرفنا أن ربنا - سبحانه وتعالى - خلقنا لعبادته، وأمرنا بتوحيده وطاعته، وأنه سبحانه لم يتركنا هملاً، ولم يخلقنا سدى؛ بل أرسل إلينا الرسول وختهم بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك أيضاً أنزل الكتب وختها بهذا القرآن الكريم، وقد بينَ النبي - صلى الله عليه وسلم - بينَ لنا ما نتعبد به، وأخبرنا بأن الله تعالى أمرنا بعبادته، وذكر لنا هذه العبادة التي خلقنا لها، والتي أمرنا بها أنها تكون من الإسلام الظاهر، وكذلك من الإيمان والإحسان، فيَّنَ - صلى الله عليه وسلم - أن الإسلام إذا أطلق وُجُمِعَ مع الإيمان فإنه هو الأعمال الظاهرة، وأن الإيمان الأعمال الباطنة، وأن الإحسان خلاصة الإيمان؛ ولذلك فسر الإسلام بالأركان الخمسة بقوله: {الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله - هذا الركن الأساسي - وتقيم الصلاة، وتوتري الزكارة، وتصوم رمضان، وتحجج البيت إن استطعت إليه سبيلا}. فجعل هذا هو أركان الإسلام، يعني: الأعمال الظاهرة، ثم قال: {الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره}. ثم قال في الإحسان: {أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك}. وبهذا يُعرف أن الإسلام صفة عامة، وأن الإيمان صفة خاصة، وأما الإحسان صفة خاصة الخاصة، أي: خلاصة الخلاصة، فالمؤمنون خلاصة المسلمين، والمحسنون خلاصة المؤمنين - نرجو أن تكون من المحسنين - وإذا عرفنا ذلك سنعرف أن أركان الإسلام الأعمال الظاهرة لا بد من تحقيقها، ولا بد من العمل بها، ولا بد من التقرب إلى الله تعالى بها، فذكر أن هذه الخمسة هي دعائم الإسلام الذي يتكون منها ظاهراً، من لم يأت بها أو لم يأت بعضها فليس ب المسلم، وإن أدعى الإسلام؛ لذلك شبه العلماء أركان الإسلام بالمنزل، أي: بالبيت الذي له أربعة أركان وله أساس وسقف، فقالوا: إن الإسلام يتكون من الشهادتين، الشهادتان هما الأساس، وهما الصانع، ومن الصانع، فرض عليهم حجه، وكذلك بقية الأركان، وجعل منها الحج إن استطاع إليه سبيلاً، ودليله من القرآن قول الله تعالى: {وَلَلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجَّةُ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} أي أن البيت الحرام الذي جعله الله تعالى مثابة للناس فرض عليهم حجه، أخبر بأنه أقدم ما في الأرض، قال تعالى: {إِنَّ أَقْلَمَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي يَبْكُهُ} أي: بمكة . {مُبَارَكًا وَهَدَى لِلْعَالَمِينَ} ذكر بعض العلماء أن الملائكة بَنَتْ هذا البيت لما أهبطَ آدم بأمر الله تعالى ليزوره ويتبعده حوله ويقترب إلى الله تعالى بالعبادات فيه، ثم أمر الله تعالى أنبياءه - كل نبي - أن يحج هذا البيت، فبحجه نوح وحجه هود وصالح وشعيب ولوط وحجه إبراهيم ولكن كان قبل زمن إبراهيم قد انهدم وأصبح ربوة إذا جاءت السبيل ذهبت عن يمينه وشماله، ثم إن الله يَوْمًا لإبراهيم مكانه فجدد بناءه، ثم نادى في الناس، قال الله تعالى: {وَإِذْ بَوَأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أُنِّي لَا نُشْرِكُ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتَنِي لِلظَّاهِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكُعَ السُّجُودُ وَأَدْنُ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رَجَالًا وَعَلَى كُلِّ صَامِرٍ يَأْتَينَ مِنْ كُلِّ فَجَّ عَمِيقٍ} هكذا أخبر الله أنه يوماً لإبراهيم مكانه، وأن إبراهيم بناء، وأنه بعد بنائه أمره أن ينادي في الناس، فرقى على جبل أبي قبيس ونادى بأعلى صوته، وإن كان صوته صوت إنسان؛ ولكن الله قال له: عليك النداء وعلى التبليغ، فنادى بقوله: "أيها الناس إن الله فرض عليكم الحج فحجوا". فسمعه من في أصلاب الرجال، يعني: سماع قبول، ومن في أرحام النساء؛ فلذلك يأتون من أماكن بعيدة، وإذا أقبلوا إلى هذا البيت رفعوا أصواتهم بالتلبية: ليك الله ليك، هذا هو الأصل في شرعية هذا الحج. التلبية شعار الحج وشعار العمرة من تلبس بهما فإنه يأتي ويرفع صوته قائلاً: ليك ليك، أي: أنا مجيب لندائك، أنا مجيب لطلبك، فهذا هو السبب في شرعية هذه التلبية. وإذا كان كذلك فإن الله - سبحانه وتعالى - قد يسر الحج في هذه الأزمنة أكثر مما كان عليه في السنوات الماضية، لقد كان آباءنا وأجدادنا يجدون مشقة في الوصول إلى هذه المشاعر، ويتجشمون تلك المشقات والصعوبات؛ ولأجل ذلك فسر قول الله تعالى: {وَتَحْمِلُ أَنْقَالَكُمْ إِلَى بَلْدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيِّبِ إِلَّا يَشْقَى الْأَنْفُسُ} ومع ذلك فإنهم يتحملون المشقات، ويتحملون الصعوبات حتى يصلوا إلى هذه الفجاج، فإذا وصلوا إلى هذه المشاعر كأنهم عَنِمُوا أكبر غنية، حيث وفهم ربهم وسددهم وأوصلهم إلى ما يطلبونه، وإلى ما يرثونه؛ لأنهم يحنون إلى هذه البقاع في كل البلاد، يحنون دائماً ويشفقون ويتمنون أن يصلوا إليها، ويتمنى الذين عجزوا عن الوصول إليها أن لو وصلوا، ولو أنفقوا ما يملكون؛ ولكن عذرهم الله لأجل المشقة، ولأجل بُعد الشقة، ولأجل كثرة النفقـة، ولأجل ما يلاقونه في الطريق من العقبات، فكثير وكثير الذين يتمنون مكانكم اليوم في أطراف البلاد ولسان حال أحدهم يقول: أتراكم في النقا والمملحة أهل سلع تذكرون ذكرنا إن قطعنا ووصلتم فاعلموا واسكروا المنعم يا أهل مني ما قطعتم وادياً إلا وقد جئتـه أسعـى بأقدامـ المُنـى سارـ قلـبي خـلفـ أطـعـانـكمـ غـيرـ أنـ العـذـرـ عـاقـ الـبـدـنـاـ كـذـاـ يـتـمـنـونـ يـقـولـونـ:ـ إـنـ قـلـوـنـاـ مـعـكـمـ،ـ وـإـنـاـ مـعـكـمـ بـالـقـلـوبـ،ـ وـمـعـكـمـ بـالـأـرـوـاحـ تـسـاـيـرـكـمـ،ـ وـتـتـبـعـ أـخـبـارـكـمـ،ـ وـتـمـنـيـ أـنـ تـكـوـنـ مـثـلـكـمـ وـمـعـكـمـ،ـ إـنـ قـلـوـنـاـ عـاقـنـاـ العـذـرـ،ـ عـاقـنـاـ الـفـقـرـ،ـ وـعـاقـنـاـ الـمـشـقـاتـ فـبـعـدـ أـنـ مـنـ اللـهـ تـعـالـىـ عـلـيـكـمـ وـوـصـلـتـمـ إـلـىـ هـذـهـ الـبـقـاعـ إـنـ شـكـرـوـاـ اللـهـ.ـ إـنـ قـطـعـنـاـ وـوـصـلـتـمـ فـاعـلـمـواـ وـاسـكـرـوـاـ الـمـنـعـمـ يـاـ أـهـلـ مـنـيـ